رثاء الأعلام عند الشاعر عبد العزيز المقالح

صالح عقيل سالم عبدربه
كلية التربية زنجبار ـ جامعة أبين

DOI: https://doi.org/10.47372/jef.(2025)19.1.729

الملخص: يدرس البحث موضوع رثاء الأعلام عند الشاعر عبد العزيز المقالح من دراسة وتحليل مشهدين، أو اتجاهين موضوعيين، يقلب عليها طابع التحليل الفني؛ إذ جسد في المشهد الأول (رثاء الشهداء) أروع التضحيات، وأنبل المواقف والبطولات، وفي المشهد الثاني (رثاء غير الشهداء- الأصدقاء) وصف الذكريات وحالة الفراق والرحيل لأصدقائه، وما تركتهُ فيه تلك الحالة من الحزن والبكاء.

الكلمات المفتاحية: رثاء الأعلام، تحليل موضوعي فني، عبد العزيز المقالح.

المقدمة: يُعدُّ موضوع الرثاء من الموضوعات الشعرية القديمة، التي طرقها معظم الشعراء القدماء والمحدثين؛ فهو قالب مشترك بين كل الناس، يجمع الأحاسيس والعواطف الجيَّاشة الصادقة في خلق المعاني، والصور، والقيم النفسية، والدلالية لدى الشعراء؛ فالرثاء من الموضوعات الجديرة بالدراسة والبحث، تتجلَّى في قِيَمِهِ نزعةٌ سامية، وفي مفهومهِ تجاوز الحدود الفردية إلى الإنسانية، ومن الخاص إلى العام ومن أمة إلى أخرى[1]، إذ يجمع الرثاء بين روعة الخيال، وعمق العاطفة، وصدق التعبير، فهو من أكثر الفنون الشعرية صدقًا، وأبعدها عن الصنعة، والتكلف[2]، وقد عدَّه معظم النقاد شعرًا وجدانيًّا، فالشاعر المبدع عندما يعيش تجربة الحزن يحوِّل دموعه ولوعته إلى صور بيانية تنطبع في نفس السامع والقارئ، وتترك أثرها فيه[3].

وفي العصر الحديث غدا الرثاء من أرق أنواع التعبير وأصدقها، فأصبح موضوعًا مستقلًا، حظي بقصائد مستقلة، وحظي بدراسات أدبية ونقدية عديدة، درسته موضوعًا منفصلًا عن موضوعات الشعر الأخرى، فيرفض طه حسين الربط بين الرثاء والمدح، ما فعله ابن سلَّام في كتابه (طبقات فحول الشعراء)؛ إذ يقول طه حسين: إنَّ "العواطف التي تبعث على الرثاء غير العواطف التي تبعث على المدح، قوام تلك الحزن واليأس، وقوام هذه البهجة والرجاء، وقد يكون الإعجاب مشتركًا بين الرثاء والمديح، ولكن قلَّما يكون الإعجاب وحده مصدر مدح أو رثاء، حتَّى تصحبه رغبة أو رهبة أو أمل أو حسرة أو لوعة أو قنوط"[4].

ولعلَّ من المشاهد والصور الأكثر تعبيرًا وتأثيرًا في فن الرثاء؛ رثاء الأعلام، والشعر العربي القديم والحديث ينضح بهذا النوع من الرثاء، فما من شاعر إلَّا وفقد شخصًا عزيزًا له، فهو الفن الذي يقترن بالموت، وليس هناك أمة وجدت لا تعرف الموت.

وإذا نظرنا إلى موضوع الرثاء في شعر اليمن الحديث وجدناه جزءًا لا يتجزَّأ عن الشعر العربي الحديث من القيمة والحضور، فهو من الظواهر الأكثر حضورًا في شعر اليمن الحديث، ومن الموضوعات التي تستحق الوقوف عليها بالدراسة والتحليل، ولعلَّنا في هذا المقام لا يسعنا أن ندرس الرثاء بصوره، وأنواعه المتعددة، فاخترنا رثاء الأعلام؛ إذ خصَّه معظم الشعراء في اليمن بقصائد خالصة ومعبِّرة ومؤثِّرة، تشي بأصالة التجربة وعمقها، وتجسِّد خصائصها التعبيرية والوجدانية، وهذا الموضوع- أيضًا - لا نستطيع أن نحصيه أو نحيط به في هذا المقام لكثرته، وسعته في شعر اليمن الحديث؛ لهذا اخترنا الشاعر (عبد العزيز المقالح أنموذجًا)، للتعبير عن هذا النوع أو الموضوع؛ لأنَّه أكثر الشعراء في اليمن حضورًا وتناولًا لمعظم الأغراض والموضوعات الشعرية، ولا سيَّما (رثاء الأعلام).

يدرس البحث (رثاء الأعلام عند الشاعر عبد العزيز المقالح) مشهدين، أو اتجاهين موضوعيين، يقلب عليها طابع التحليل الفني، وهما:

1- رثاء الشهداء. 2- رثاء غير الشهداء-الأصدقاء.

أولًا- رثاء الشهداء: أنجبت اليمن ثلة من المناضلين الأحرار في بداية عهد الثورة، مطلع أربعينيات القرن العشرين، وكان معظم هؤلاء الأحرار من الشعراء والأدباء، فقد تبلورت لديهم فكرة النضال وانتزاع الحرية من الحكام المستبدِّين الجاثمين على صدور الشعب، فناضلوا بسلاح الكلمة وسلاح السيف معًا، وضحوا بأرواحهم من أجل الاستقلال وتحرير بلادهم، وقد قال عنهم الدكتور العراقي هلال ناجي: "فما أعرف بين أقطار العرب كافةً قطرًا قدَّم أغلى الضحايا من أدبائه على مذبح الحرية كالقطر اليمني في ثورته الرائدة على الملكية عام 1948م"[5]. ويتقدَّم هؤلاء الشعراء الذين أهدوا أرواحهم رخيصة لوطنهم الغالي في قلوبهم؛ (محمد محمود الزبيري، وزيد الموشكي، وأحمد المطاع، وعبد الوهاب الشماحي، وعلي عبد المغني، ومحي الدين العنسي، وعبد الله اللقية، وحسين صالح الحريزع، وآخرون)، وقد رثاهم المقالح بقصائد دامية معبِّرة، تشي بمكانتهم الوطنية العظيمة الخالدة.

والبداية مع محمد محمود الزبيري. يقول عبد العزيز المقالح في قصيدة (رسالة إلى الزُّبيري) [6]:

---

[1] - ينظر: الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام، حسين جمعة، دار معد للنشر، دمشق، ط1، 1982م، ص40.
[2] - ينظر: الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، يحيى الجبوري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط5، 1986م، ص195.
[3] - ينظر: الشعر العربي في رثاء الدول والأمصار حتى نهاية سقوط الأندلس، شاهر عوض الكفاوين، أطروحة دكتوراه، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1984م، ص45.
[4] - حافظ وشوقي: طه حسين، مكتبة الخفاجي، القاهرة، د. ت، ص145. وينظر: طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلَّام الجمحي، تحقيق، محمود محمد شاكر، دار المدني للنشر، القاهرة، 1974م، م1، ص50.
[5] - شعراء اليمن المعاصرون، هلال ناجي، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت، ط2، 2009م ، ص6.
[6] - محمد محمود الزبيري شاعر وأديب وزعيم سياسي، ولد عام 1918م، تلقى تعليمه في المساجد والمدرسة العلمية بصنعاء، وسافر عام 1938م إلى القاهرة وواصل دراسته في دار العلوم، وعاد إلى اليمن في 1941م، وكان زعيمًا سياسيًّا ومصلحًا اجتماعيًّا وداعيًا إسلاميًّا وأديبًا بارعًا، وقد تعرَّض للسجن حين

دمعـــي، علـــى البلـــد المهـــدور مهـــدورُ ... وصـــوتُهُ كالصَّـــدى المهجـــور، مهجـــور
أبكـــي أعـــضُّ جـــدارَ الليـــل منطفئًـــا ... فـــي غربتـــي تتخطّـــاني الأعاصـــيرُ
وحـــين لا الـــدمع تشـــفيني صـــفائحُهُ ... ولا تغيـــبُ عـــن العـــين الـــدَّياجيرُ
أعـــوذُ للكلمـــات / الشـــعر، أســـألها ... عطفًـــا، وفـــي رئتـــي للحـــزن تثَّـــورُ
تصـــدَّني فـــي حنـــانٍ، ثـــمَّ تمنحُنـــي ... نشـــيدَها، وَهـــوَ منظـــومٌ ومنثـــورَ
أعلـــو بـــه أتحـــدَّى ليـــلَ نكســـتِنا ... والهـــولُ محتـــدمٌ، والرُّعْـــبُ منشـــورُ
أرتـــادُ عـــالَمَ حَتْفـــي غيـــرَ مكتـــرثٍ ... وفـــي فمـــي مِـــنْ (أبـــي الأحـــرارِ) تبشـــيرُ
يـــا ســـيّدَ الكلمـــاتِ، الشـــعبُ ممـــتهنٌ ... جوعـــانُ، عريـــانُ، تدميـــهِ الأظـــافيرُ
رفـــاقُ دربِـــكِ خـــانوا فَجْـــرَ صـــحوتِهِ ... وأبعـــدَتْهم عـــنِ الشـــعبِ الـــدّنانيرُ
بـــاعوهُ مـــنْ كـــلّ أفـــاقٍ ولـــيسَ لهـــم ... رأي، ســـوى أنّهـــم فـــيهم طراطيـــرُ [7]

استطاع المقالح في هذه القصيدة أن يصور المأساة والفاجعة الكبرى التي أحلت به، وبالشعب اليمني قاطبة بمقتل أبي الأحرار- الشاعر والمناضل الجسور محمد محمود الزبيري الذي قال عنه عبد الله البردوني: "إنَّه كرَّس شعره وحسه للوطنية، فكان الوطن ذاته وموضوعه، ولعلَّ هذا سرّ خطورة شعره"[8]، إذ تأثر به كل من البردوني والمقالح وسارا على هدى من مواقفه ومنجزه[9]؛ فالقصيدة جاءت صرخة مكلومة بالبكاء، مفعمة بلغة مشحونة بالانفعال والاضطراب والتوتر والشكوى لرحيل معلمه الزبيري، فصوت (الراء)"صوت لثوي متوسط مجهور تكراري منفتح"[10] حاضر بقوة وبصورة لافتة في كل أجزاء القصيدة، وقد جاء ملتحمًا بأصوات أخرى معزِّزة لقيمته الدلالية والفنية، كصوت (الميم، والعين، والياء، والنون)؛ ليفي بالتعبير عن مضمون القصيدة (الحزن، الدمار، البكاء، الغربة، الرعب..)، بل جعله الشاعر أكثر عناصر اللغة انتشارًا في أبيات القصيدة وقافيتها - رويًّا لها؛ لتتسع دلالاته وتتشعب إيحاءاته، فيكون عنصرًا فاعلًا لغويًّا وموسيقيًّا. ومثل هذه التوظيفات فيها استرسال ونداءات وأصداء أصوات، تأتي لتعديل المواقف، وترشيد السلوك، والتذكير بعِبَر الدهر وأحداثه[11]، وبذلك تتضافر اللغة والموسيقى، لتتوافقا مع الموقف التعبيري والدلالي لصوت (الراء)، ليدل - من ناحية - على الفقيد (الزبيري)، ومن ناحية أخرى على الرجفة والمأساة التي تركها رحيله.

ويقول المقالح في قصيدة (الشاعر) في الذكرى السادسة عشرة لغياب الشهيد الشاعر زيد الموشكي [12]:

1

وبكلِّ أحزاني،
بما في العين من دمعٍ
بما في القلب من شوقٍ جريحْ
صارعتُ أشباحَ الظَّلامِ
وقفتُ مقتولًا أصيحْ..
كان الرجال هناك في المنفى
وكانت قريتي مذبوحةَ الأحلامِ
تنتظرُ المسيحْ
الجوع يمضغ وجهها
والليل يشربُ دمعها
لا شيءَ في قلبِ الزحامْ
لا شيءَ
غيرُ نُجيْمَةٍ خضراء تلمع في الظلامْ
والشِّعرِ، والأملِ الكسيحْ

عودته من قبل الحكم الإمامي في اليمن، وبعد خروجه من السجن هرب إلى عدن هو ومجموعة من رفاق دربه، وأنشأ (حزب الأحرار) في عدن سنة 1944م، ثم الجمعية اليمانية الكبرى، وعاد إلى صنعاء في 1948م، مخططًا ومؤيدًا لثورة ابن الوزير، وبعد فشل ثورة 1948م سافر إلى باكستان، ثم مصر، وظل هناك في مصر يرتب لقيام ثورة 26 سبتمبر 1962م بدعم كبير من الزعيم جمال عبدالناصر، وعاد إلى اليمن وأصبح وزيرًا للتربية والتعليم في حكومة الثورة، لكنَّه اختلف مع الثوار وقدَّم استقالته، وقد اغتيل في 1/ إبريل سنة 1965م. له ثلاثة دواوين شعرية: (صلاة في الجحيم، ثورة الشعر، نقطة في الظلام)، ودراسات أدبية وسياسية، وكُتِبَتْ عنه دراسات متعددة، معظمها أكاديمية علمية. ينظر: شعراء اليمن المعاصرون، ص25. وينظر: الأبعاد الموضوعية والفنية لحركة الشعر المعاصر في اليمن، عبد العزيز المقالح، دار العودة، بيروت، ط3، 1984م، ص61. وينظر: الشعر اليمني المعاصر بين الأصالة والتجديد، أحمد قاسم علي المخلافي، مكتبة الجيل الجديد، صنعاء، (ب- ت)، ص490.

[7] - الأعمال الشعرية الكاملة، عبد العزيز المقالح، وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، م3، 2004م، ص45.

[8] - رحلة في الشعر اليمني قديمه وحديثه، عبد الله البردوني، بيروت، 1978م، ص130.

[9] - ينظر: ضفاف للغواية واليقين، قراءة في المنجز الإبداعي والنقدي اليمني الحديث، علي حداد حسين، مكتبة خالد بن الوليد، دار الكتب اليمنية، صنعاء، ط1، 2009م، ص29.

[10] - التمثيل الصوتي للمعاني، دراسة نظرية وتطبيقية في الشعر الجاهلي، حسني عبد الجليل يوسف، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ط1، 1998م، ص24.

[11] - ينظر: تحاليل أسلوبية، محمد الهادي الطرابلسي، دار الجنوب للنشر، تونس، 1992م، ص76.

[12] - زيد بن علي الموشكي، عالم وشاعر، ولد في ذمار، وتعلم فيها، ثم انتقل إلى صنعاء، وأخذ العلم من كبار علمائها، وكان في طليعة العلماء والشعراء المناضلين والمصلحين، فقاوم السياسة التجهيلية، التي اتبعها الأئمة الحاكمين، وقد هاجر مع الزبيري إلى عدن، ثم عاد إلى صنعاء، واشترك في ثورة 1948م، وكان من ضحاياها وشهدائها. له قصائد شعرية ومقالات، جمعها الدكتور عبد العزيز المقالح في كتاب خاص بعنوان: (الموشكي أشعاره وأخباره). ينظر: الشعر اليمني المعاصر بين الأصالة والتجديد، ص463.

2

ومضيتُ أزرع في شفاه الأرض
أزهار الكلام
ومسحتُ عن شمس العيون السُّمر
آثار الوحول
أطعمت لحمي للعصافير الصغيرة
حين أجدبت الحقول [13].

يخيِّم اليأس على الشاعر وقريته بفراق الشاعر الموشكي، الذي اقتِيد وقُتِل وهو في سن الخامسة والعشرين من عمره، إثر فشل ثورة 1948م، إذ استطاع المقالح تصوير المشهد المأساوي في المقع الأول من خلال اللغة والصورة الشعرية وعنصر السرد تصويرًا تتجلى فيه تجربة الشهيد الموشكي، بقوله على لسان البطل الشهيد، وحوار الذات للآخر: "صارعتُ أشباح الظلامْ، وقفتُ مقتولًا أصيحْ.."، وتوظيف عنصر الزمان والمكان "كان الرجال هناك في المنفى، وكانت قريتي مذبوحة الأحلامِ.."، ويأتي بوجهة النظر- بصيص الأمل- بعد تكرار أسلوب النفي مرتين، في قوله: "لا شيء.. لا شيء.. غيرُ نُجيْمَةٍ خضراء تلمع في الظلامْ".

فالقصيدة تحمل معاني تعبيرية ودلالية، إذ تؤكِّد قوة النضال والتضحية من قبل الشهيد الموشكي، فقد صارع الطغاة وتحدَّاهم، ووهب نفسه رخيصة في سبيل الحرية لوطنه "أطعمت لحمي للعصافير الصغيرة\ حين أجدبت الحقول"، فتتجلى التجربة في مشهد حزين وتصوير نادر، تظهر فيه براعة الشاعر في التصوير، فضلًا عن ذلك قوله: "بما في القلب من شوقٍ جريحْ، وكانت قريتي مذبوحة الأحلامِ، الجوع يمضغ وجهها، والليل يشربُ دمعها..". كذلك أدّت الموسيقى دورًا معزِّزًا، فاختيار القافية المقيدة يوحي بحالة السكون والصدمة النفسية، واختيار الروي صوت (الحاء)، يوحي بكثرة الصياح والبحة والجرح (أحْ)، والغصة المؤلمة لقتل (الموشكي).

ويقول المقالح في قصيدة (نقوش يمانية) من جدارية محيي الدين العنسي [14] الشهيد في ثورة اليمن الدستورية عام1948م:

النقش الأول:
يكتُبني دمي،
يوقفُني في النقش شاهدًا للعصر،
شاهدًا للنهرِ
جفَّ في بدْءِ الربيع ماؤهُ،
للشمس- ترفضُ الظلامَ- انطفأتْ
قبلَ مجيءِ الفجرِ،
للملايين الجياع..
الخارجين كعظامٍ من سوادِ القبرِ،
للأرض التي أرادتني كتابًا
وردةً
صدىً،
وشبحًا على مناطق الفراغْ [15].

سمّى الشاعر قصيدته بنقوش، ووصفها بيمانية، وجعلها أربعة نقوش، وكتبها على جدارية الشهيد محيي الدين العنسي، وقد جاء النقش الأول مكتوبًا بدم الشهيد العنسي؛ امتثالًا لوصية الشاعر، لتكون شاهدًا للعصر وللتاريخ وللتضحية، وشاهدًا للنهر، وللحياة والأجيال القادمة، التي ستحمل لواء الشاعر، وللأرض- كذلك - التي ستنبته كتابًا، وردة، صدى، وشبحًا يغطي مساحة تلك الأرض، حتى يصل مناطق الفراغ فيها. ويكمل الشاعر لوحة جدارية الموت وفلسفته في النقوش الثلاثة الأخرى، ومنه قوله في النقش الثالث قبل الأخير:

يكتبني دمي
يرسم صورتي
واسمي،
وصورة الأرض التي أحببتُ
والمبادئ التي اعتنقتُ
والحرف الذي عشقتُ
والكواكب التي أقمتُ في عيون الماءِ
في دم الأشجارِ
في مساحات الزمان
في شرايين المكان
في جدار السجن
في ظهيرة الميدان.

---

[13] - الأعمال الشعرية الكاملة، م3، ص179.

[14] - محيي الدين العنسي، ثائر ومناضل وسياسي وشاعر، من مواليد 1912م محافظة ذمار، عُيِّن رئيسًا لأول بعثة عسكرية إلى العراق 1935م، وعند عودته إلى صنعاء اعتِقل إثر نشاطه الوطني المعارض، وبعد إطلاق سراحه سافر إلى مصر، وعاد مع أحداث الثورة الدستورية 1948م، وعُيِّن في حكومة الدستور وزيرًا للخارجية، وعقب فشل الثورة اقتِيد إلى سجن حجَّة، وأُعدِم في 14 مايو 1948م. ينظر: ثورة اليمن الدستورية، عبدالله السلال وآخرون، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، دار الآداب، بيروت، ط1، 1985م، ص145.

[15] - الأعمال الشعرية الكاملة، م2، ص389-392.

هذا النقش رسمه الشاعر بصورة قوية؛ فاللغة التي عبَّر بها الشاعر تشي بالعلاقة القوية بين الشهيد العنسي ووطنه، فهو ما يزال حاضرًا بروحه، بدلالة توظيف الفعل المضارع بصورة لافتة ومترابطة بأسلوب العطف بالواو، فقد نقش اسمه على كل مساحات الوطن (في دم الأشجار، في مساحات الزمان، في شرايين المكان، في جدار السجن، في ظهيرة الميدان..).

ويقول المقالح في قصيدة (مشاهد من سيرة الياء والميم) في ذكرى الشهيد علي عبد المغني [16]:

أيها الخارج كسيفٍ غسلهُ ضوءُ المطرِ
لقد كنتَ واحدًا في زمنِ التشظّي
فكيف صرتَ اثنينِ في زمن الاستواء؟
السيفُ لا ينقسمُ على نفسِهِ
ولم تكنْ تخومُكَ المتموِّجةُ بالجمرِ الذَّهَبِيِّ
هيَ التي صنعَتْ هذا الشَّرخَ النّازفَ في جدرانِ الجبالِ ..
الكهفُ المتحرِّكُ، الجائعُ الغريبُ، الرّمل اليابسُ
هؤلاءِ هُم الذين أرادوا البحر وليمةً تليقُ بالّرهانِ المتوحّشِ.
كان ذئب الشمال البعيد يقولُ:
سوف نزرعُ البحرَ قبورًا
حتى لا تتوحدُ ذاكرة الأسماكِ
وقد احترق ذئب الشمال في رماد المرافئ
وآن للواحد أن يخرج من قاموس اللغات المتعددةِ..
طوبى لكَ أيها السيف الخارج من الأهدابِ.
طوبى لكَ السفرُ إلى جنَّةِ التوحُّدْ [17].

بنى الشاعر قصيدته من ستة مقاطع شعرية بنَفَس شعري سردي منفعل، وأسلوب مترابط ومنسجم، تتجلى فيه تجربة المرثي الشهيد علي عبد المغني، فالبداية في المشهد الأول كررها في المشهد السادس الأخير، فكانت هي النهاية التي ختم بها القصيدة، وفي هذا التعبير إيحاء بعظم شخصية المرثي، فهو بداية القصيدة وخاتمتها؛ بل هو القصيدة كلها، ولعلَّ من الأشياء المثيرة كذلك، بداية القصيدة (الصورة التشبيهية)؛ إذ شبَّه الشاعر المرثي في أول أسطر القصيدة بالسيف، الذي غسله ضوء الفجر، وهو تشبيه تمثيلي، يشي بتعدد صفات المرثي (الطهر، الصدق، النور، الأمل..)، وقد استطاع الشاعر أن يكرِّره على امتداد مساحة القصيدة، حتى صارت هذه الصورة: "السيفُ لا ينقسمُ على نفسِهِ، طوبى لكَ أيها السيف الخارج من الأهدابِ، طوبى لكَ السفرُ إلى جنَّةِ التوحُّد"، صورة رمزية؛ لأنَّ "الصورة يمكن استثارتها مرّة على سبيل المجاز، لكنَّها إذا عاودت الظهور بإلحاح، كتقديم وتمثيل على السواء، فإنَّها تغدو رمزًا"[18].

فالمرثي يراه الشاعر واحدًا في زمن التشظّي، ولم تكن تخومه المتموجة بالجمر الذهبي، هي التي صنعت هذا الشرخ النازف في جدران الجبال.

ويقول المقالح في قصيدة أخرى (السفر في ذاكرة الأبجدية) إلى روح بطل ثورة سبتمبر الشهيد علي عبد المغني:

2
شاحبة أوراق الورد على أشجار
الشمس
شاحبة كل قناديل الذكرى
عارية من ورق النور
وخابية تحت عيون الأهل
وحول وجوه المدعوين
موسيقى الحفل الجناز
إيقاع الرقص نشاز
ميتة كل الكلمات المسموعة
والمكتوبة،
كل حروف الأشياء،
شاحبة
ميتة كل الأضواء [19].

[16] - علي محمد حسين عبد المغني ولد سنة 1935م في محافظة إب، ثم انتقل إلى صنعاء، ثائر ومناضل يحمل رتبة لواء، كان ألمع زملائه ذكاء وتحصيلًا، وأكثر وعيًا ممن يشتغلون بالسياسة، وكان شغوفًا بالأدب إلى حد بعيد، وكان حبه لبلده بلاد حدود، وكان مهيَّئًا ليلعب دورًا عظيمًا وجليلًا في تاريخ اليمن. شارك في تأسيس تنظيم الضباط الأحرار في ديسمبر 1961م، وكلف بقيادة حملة عسكرية إلى منطقة (حريب) في مأرب لموجهة الحشود الملكية، وقتل في هذه المعركة في أكتوبر 1962م، وعدَّه كثير من الدارسين بأنَّه القائد الفعلي لثورة 26 سبتمبر 1962م. ينظر: يوميات يمانية في الأدب والفن، عبد العزيز المقالح، دار العودة، بيروت، (ب- ت)، ص169.

[17] - الأعمال الشعرية الكاملة، م3، ص445-459.

[18] - نظرية الأدب: رينيه ويليك وأوستن وارين، تحقيق: محيي الدين صبحي، مراجعة، حسام الخطيب، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، لبنان، ص244.

[19] - الأعمال الشعرية الكاملة، م2، ص655-658.

استطاع الشاعر في هذا المقطع الثاني أن يرسم صورة مظلمة لفراق علي عبد المغني، فتكرار المفردة (شاحبة، شاحبة، شاحبة) ثلاث مرات يدل على اليأس والتذمر التام. أما المقطع الأول فقد استهله الشاعر بأبيات شعرية من ديوان الشعر العربي القديم والحديث، وختم المقطع الخامس الأخير بأبيات من الفولكلور الشعبي اليمني بقوله:

س: "سارت سنةٌ والثانيةٌ بتلحقْ الله يصيبْ من بيننا بيمحقْ"

ب: " بالله عليكْ، يا طيرْ يا رمادي فُكَّ الجناحْ، ورُدَّني بلادي"

وجاء بالمقاطع (الثاني، والثالث، والرابع) بشعر التفعيلة معبرًا بها عن الزمن الحاضر- زمن الحزن والحداد على روح شهيد الثورة على عبد المغني.

فالمقطع الثاني يبدو أنَّ الشاعر كان متأثِّرًا كثيرًا برحيل صديقه الشهيد علي عبد المغني، فرثاه بأكثر من قصيدة وتحدث عنه في مقالات عديدة، وكتب عنه، فقال عنه: "كان يتساءل: لماذا تكون المبادئ نقية صافية، ثم تتغير ويدركها الذبول وينطفئ بريقها وسحرها عندما تتحول إلى نظام؟؟ كانت تشغله أشياء أكبر من سنه، وأكبر من ظروفه. كنَّا: الأستاذ أحمد المروني، والأستاذ أحمد جابر عفيف، والأستاذ إبراهيم الحضراني، وأحيانًا الأستاذ عبد الله البردوني، كنا نقضي ساعات القيلولة على ساحة ملعب المدرسة الثانوية، وكانت الساحة تغص بالطلاب، وكان أربعة أو خمسة هم فرسان الساحة بالنسبة لنا جميعًا، وكان عبد المغني سيد هؤلاء الفرسان"[20]. ولذلك عبَّر المقالح عن فراق صديقه المناضل بكل ما يملك من أدوات وأساليب وتجارب شعرية قديمة وحديثة، فصيحة وعامية؛ لعلَّها تفي بالغرض المُعبَر عنه.

ويقول المقالح في قصيدة (على أبواب شهيد) في وداع الصديق الشهيد عبدالله محمد اللقية[21]:

أتسمح لي أن أمر ببابكْ؟
أتقبلُني لحظةً في رحابكْ؟
لألثمَ حيثُ هوى السيفُ،
أقبسُ بعضَ الشُّعاعْ
لأقرأ بين يديكَ اعتذاري
لأحرقَ في الكلماتِ الحزينةِ عاري
لأشعرَ- لو لحظةً - أنَّني آدميٌّ
وأني بظلِّك صرتُ الشجاعْ..
فإني جبانٌ تخليتُ عنك غداة الوداعْ
تركتُكَ للموتِ، للقاتلينَ.. الجياعْ[22].

أرخ الشاعر تاريخ كتابة القصيدة في مايو 1961م، وهو الشهر والعام الذي أُعدم فيه صديقه عبدالله اللقية بقطع رأسه بالسيف، أمام مرأى الجماهير المحتشدة في ساحة الإعدام، وليس له ذنب سوى أنَّه أراد لهذه الجماهير الحرية والعيش بكرامة، فتأثر الشاعر بهذا الحدث الدامي، ولم يجد- حينها- شيئًا يدافع به عن صديقه سوى البكاء على قبره والتذمر والحزن؛ فجاء المقطع الأول والمقطع الثاني في القصيدة اعتذارًا شديدًا، وظَّف فيه الشاعر أسلوب الاستفهام، الذي نتذوق فيه تنغيمًا، يشي بالاعتذار والتعظيم وصدق المعاناة: "أتسمح لي أن أمر ببابك؟، أتقبلني لحظة في رحابك؟.." فهو يشعر بالذنب والخذلان والضعف (لحظة إعدام الشهيد)، مصوِّرًا في الموقف نفسه الشهيد في مشهد مغاير، يتصف بالقوة والشجاعة، فكل من حوله يتقرَّب إليه؛ ليقدم له الاعتذار، ويغتسل بروحه وموقفه من الذنب والعار، نحو قوله في المقطع الثاني:

أتسمح لي أن أعفِّرَ وجهي
أمرِّغَ شعري بباقي الدِّماءْ
أمزِّقَ وزري لأعرفَ باب السماءْ
وعذري إليك..
إلى شمس عينيك أنّي جبانْ
ولكنَّني رغم جبني
بكيتكَ ملءَ عيون الزمانْ
نقشتُ اسمكَ البكرَ عبر المدى
والمكانْ[23]

فتكرار أسلوب الاستفهام في المقطع الأول والمقطع الثاني بالحرف (الهمزة) من ناحية؛ فيه دلالة على حب المرثي وقربه من قلبه ومشاعره، ومن ناحية أخرى الإقرار بالذنب والتقصير من أصدقائه وشعبه، الذين ضحَّى من أجلهم، فتكرار الاستفهام يعدُّ أحد الأضواء

[20] - يوميات يمانية في الأدب والفن، ص170.
[21] - عبدالله محمد اللقية، أُعدم في صباح يوم الأحد 21/ مايو 1961م في الساحة المقابلة لقصر العرضي، بعد أن ألقي القبض عليه بتهمة الاشتراك مع محمد عبدالله العلفي في محاولة اغتيال الإمام أحمد حميد الدين في الحديدة مارس 1961م، وقُتِل وهو شاب في الثامنة والعشرين من العمر، وكان يعمل في فرقة المطافي في ميناء الحديدة. ينظر: اليمن الجمهوري، عبدالله البردوني، دار الأندلس، ط5، 1997م، 244. وينظر: وفيات عدن، سالم عبدالرب السلفي، دار الوفاق، الجمهورية اليمنية، عدن، ج1، ط1، 2014م، ص228.
[22] - الأعمال الشعرية الكاملة، م3، ص222.
[23] - نفسه، م3، ص223.

اللاشعورية- أحيانًا - التي يسلِّطها الشعر على أعماق الشاعر؛ فيضيئها بحيث نطَّلع عليها، أو لنقل أنَّه جزء من الهندسة العاطفية للعبارة، يحاول الشاعر فيه أن يقيم أساسًا عاطفيًّا من نوع ما [24].

ويقول المقالح في قصيدة (مرثاة شهيد) في جنازة الملازم حسين صالح الحريزع [25]:

معذرةٌ
معذرةٌ
يا صانعَ التاريخ والحياةْ
يا من وهبتَ لي
لجيلنا الإيمان والحياةْ
معذرةٌ
إذا احتواني الصمت والسكوتْ
وغاض شعري يا بريقَ الشعر
يا سناهْ،
فإنني أقسمتُ أن أموتْ
في دربك المبدأِ
والصلاهْ،
ولن يكون الشعر من بواتري
فالقدم الثابت فوق الرمل
والصخور
أشرف من جبين ألف شاعرِ
والجرح تحت الشمسِ
يغلي فوق صدرٍ ثائرِ
ملحمةُ الأيام والعصورْ [26].

حاول الشاعر أن يقدِّم المرثي في صورة عظيمة، تشي بمواقفه الجبارة، فقد حمل على كاهله راية الكفاح والدفاع عن الوطن والأمة العربية والإسلامية، فاعتُقل مرات عديدة في أثناء نضاله في الداخل، وشارك ضمن المتطوعين العرب ضد إسرائيل في حرب يونيو 1967م، واستشهد صباح الخامس من يونيو المظلم، كما يسميه الشاعر. وأسلوب التكرار الذي بدأت به القصيدة (معذرة، معذرة)، وأسلوب النداء الذي تلاه مباشرة (يا صانع التاريخ، يا من وهبتَ لي..) وأسلوب كتابة القصيدة (الفضاء النصي)؛ كل ذلك يثري المعنى ويعمق الدلالة، التي تشي بمواقف الشهيد النضالية، فالمرثي ليس شخصًا عاديًّا، أو حدثًا عابرًا؛ بل هو علم شامخ من أعلام النضال والصمود، وموته أحدث ضجة كبيرة اهتزت لها القلوب، فكان استشهاده خسارة كبيرة على شعبه وعلى الأمة العربية والإسلامية، فهو من الرجال الذين صدقوا العهد، ولبَّوا نداء العروبة والإسلام، وسطَّروا ملحمة الصمود والنضال، فقاتل حتى قضى نحبه، فبكاه الشاعر رافعًا لروحه الزكية رايات الاعتذار والتحية والتقدير والوفاء.

لقد سطَّر الشاعر عبد العزيز المقالح أروع المشاهد وأنبل المواقف والبطولات في قصائده الوطنية؛ وفاءً لأصدقائه المناضلين الشهداء، الذين قاوموا الإمامة والظلم، وضحَّوا بحياتهم في سبيل نيل الحرية، وتحقيق العدالة والمساواة بين أوساط شعبهم.

ثانيًا- رثاء غير الشهداء- الأصدقاء: ينماز هذا الموضوع من الرثاء بتناول الأصدقاء والأصحاب، الذين عاشوا مع الشاعر وتزاملوا معه، وجمعت بينهم مواقف وذكريات جميلة؛ إذ عبَّر عنها الشاعر في قصائد مرثيات، بث فيها مشاعره الحزينة تجاه فراق هؤلاء الأصدقاء، الذين سقطوا ليس في ساحات القتال، على الرغم أنَّ معظمهم كانوا أصحاب مواقف نضالية ثابتة، عبَّروا عنها بسلاح السيف والكلمة، وتجلَّى الجانب النفسي والعاطفي في رثائهم بصورة تختلف عن رثاء الشهداء، الذين رثاهم الشاعر، ولم يصاحب معظمهم، أو يلتقِ بهم في ساحات النضال والتضحية، غير أنَّ مواقفهم الوطنية خلَّدت أسماءهم وحياتهم وتضحياتهم الجسيمة.

أمَّا رثاء الأصدقاء، فقد عبَّر عنه الشاعر بأسلوب آخر، لاختلاف الموقف؛ إذ جاءت قصائده رسائل تعزية، يذكر فيها مناقبهم وصفاتهم الحميدة، وتتجلَّى فيها روح الوفاء والعرفان والفقد والفراق القاسي، فقد صاحبهم وعاش معهم حياة حافلة بالذكريات، فكان حريّ به أن يرثيهم بعد مماتهم بقصائد كانت أكثر عاطفة وتأثيرًا، تفيض بالآهات والبكاء والحسرة.

يقول المقالح في قصيدة (أسئلة مشتعلة في زمن البكاء) إلى الصديق الشاعر الكبير يحيى علي البشاري [27]:

(يحيـــى) وشـــعرُكَ صـــار فـــي آفاقنـــا صـــوتًا يضـــيء، وصـــارمًا مســـنونا

---

[24]- ينظر: قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة، دار العلم للملايين، بيروت، ط7، 1983م، ص276.

[25]- حسين صالح الحريزع، سياسي ومناضل وثائر، شارك في العديد من الثورات والحركات ضد الإمامة والاستبداد، ومنها: ثورة الدستور 1948م، و ثورة 1955م، وثورة سبتمبر 1962م، وشارك مع رفاقه في حصار صنعاء 1967م (حصار السبعين يومًا)، وشارك ضمن مجموعة عربية من المتطوعين تقاتل ضد إسرائيل، وكان أول شهيد يتصدَّر قائمة الشهداء اليمنيين في يوم النكسة هزيمة مصر والدول العربية من قبل إسرائيل في الخامس من يونيو 1967م. ينظر: ثورة اليمن الدستورية، عبدالله السلال وآخرون، ص162-167.

[26] - الأعمال الشعرية الكاملة، م3، ص316.

[27] - يحيى علي البشاري ولد عام 1937م بحجة، مناضل وشاعر كبير، ومجدِّد في عمود الشعر، وله قصائد بالعامية. حمل لواء الدفاع عن ثورة سبتمبر 1962م في الأيام الألى، وكذلك في أثناء حصار السبعين يومًا، واعتقل في سجون حجَّة قبيل ثورة سبتمبر، تولى منصب مستشار وزارة الخدمة المدنية، وهو عضو في اللجنة الوطنية المشتركة بين الشطرين بقيادة الرئيس الأرياني وسالمين للتحضير للوحدة سنة 1972م، واتَّسم سلوكه بالزهد والترفع عن المناصب وإغراءات التكسب بالشعر، توفي عام 2005م، ينظر: ديوان يحيى علي البشاري، إعداد ودراسة إسماعيل محمد الوريث، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ط1، 2007م، ص7-25

لا تحتـــــرق، فـــالموت لغـــزٌ غـــامض ... أعيـــــا الحكـــــيمَ وروَّع المجنونـــــا
فـــالموت كـــأس العمـــر مـــا مـــن عـــائشٍ ... إلّا تجـــــرَّع كأســـــهُ مغبونـــــا
يَســـتافُها فـــي المهـــد طفـــلٌ ذاهـــلٌ ... ويعبُّهـــا الشـــيخُ الوقـــور منونـــا
أنـــتَ الـــذي أدركـــت مـــا أخفـــى الـــدَّجى ... للشـــمس كيـــف غـــدا الأمـــينُ خؤونـــا؟
أشـــعلت صـــوتك فـــي خرائـــب (مـــأرب) ... مستنهضًـــا تحـــت التـــراب قرونـــا
وبكيـــت أمـــة يعـــرب فـــي ذلهـــا ... دمعًـــا، مـــن الكلـــم المبـــين هتونـــا
يـــا حامـــل القلـــم الجـــريء وصـــاحب ... القلـــب الـــوفي، وصـــوتنا الموزونـــا
مـــاذا أصـــاب الشـــعر فـــي أيامنـــا؟ ... ذبلـــت قوافيـــه، وجـــفَّ لحونـــا [28]

يتحدث الشاعر في هذه القصيدة عن صديقه الودود يحيى البشاري، الشاعر والمناضل الذي قاتل النظام الإمامي الكهنوتي الجائر عند انطلاق ثورة 26 سبتمبر 1962م، ودافع عنها عند الالتفاف عليها في أحداث 1967م (حصار السبعين يومًا)، فكان رمزًا للنضال والتضحية، وكان البشاري شاعرًا كبيرًا، يقول الشعر بالفصحى والعامية، وله قصائد وطنية كثيرة، ويشيد بها الدكتور عبد العزيز المقالح، ويذكر مناقبه؛ بأنه كان صوتًا يضيء طريق الحق والحرية للشعب، وسيفًا صارمًا مسنونًا على الحاكم، وفي هذا التعريج بذكر مناقب المرثي نرى تناصًّا ومحاكاة للشعر العربي القديم عند فقد عزيز أو قائد كبير، على سبيل المثال: رثاء أبي تمام للقائد محمد بن حميد الطوسي، وذكْرُ مناقبة في "قصيدة أبي تمام في موت محمد بن حميد الطوسي"[29]، وبهذا المصاب الجلل - موت يحيى البشاري - حاول المقالح أن يأتي بأبيات من الحكمة والوعظ، يتحدث فيها عن كأس الموت؛ ليصبِّر نفسه وأصدقاءه، وليخفِّف عنهم الأحزان بفراق البشاري. ويقول المقالح في قصيدة (دموع منظومة) إلى الصديق العزيز الشاعر الكبير الأستاذ عبد الرحمن قاضي[30]:

مـــن للفـــؤاد النّاحـــب المتصـــدِّع ... ولناضـــرٍ دامـــي المحـــاجرِ موجـــعِ
تتمـــرد الأحـــزان فـــي أجفانـــهِ ... وتضـــجُ فيهـــا عاصـــفاتُ الأدمـــعِ
لمّـــا انطـــوى النـــورُ الحبيـــبُ عشـــيّةً ... وانهـــار صـــرحُ محبّـــةٍ وتضـــلّعِ
وذوي جـــلال الطهـــر فـــي ســـاحاتِنا ... وخبـــا بهـــا ضـــوءُ النهـــار الأروعِ
وســـعى أبـــو الشـــعراء روحـــاً ناكسًـــا ... لله مـــن متنسِّـــكٍ متـــورِّعِ
يمشـــي علـــى درب البـــراءة وادعًـــا ... ويضـــيءُ كـــالطيف النبيـــل الأرفـــعِ
لمـــا رأى الأضـــباع تـــنهش أهلهـــا ... وتشـــدُّهم نحـــو الفنـــاء الأســـرعِ
هجـــر الزِّحـــامَ وعـــاش مـــلءَ ضـــميرهِ ... حُـــرًّا كعَـــرف الغابـــةِ المتضـــوِّعِ [31]

يتوجع الشاعر على فراق صديقه الشاعر الكبير عبد الرحمن قاضي بتوظيف أساليب جمالية متعددة ابتدأها بأسلوب الاستفهام: (من للفؤاد الناحب المتصدع...؟)، الذي يفيد التوجع والحسرة على المرثي، فالحزن ملأ قلبه وكاد أن يهدَّه، وكيف لا يحزن عليه؟! وقد وصفه بتحلّيه بصفات حميدة، نحو: (الطهر، الضوء، النسك، الورع، البراءة، الطيف، النبل، الصدق..). فالقصيدة جاءت مليئة بالصفات الحسية والمعنوية للمرثي (عبد الرحمن قاضي)، الذي رحل عن هذا العالم الوحشي التمرد المخيف - كما وصفه الشاعر- فكان الموت راحة له.

كذلك استطاع الشاعر عبد العزيز المقالح أن يوظِّف أساليب أخرى تتناسب وتجربته الشعرية، منها اختيار الصور الشعرية المعبِّرة والمؤثِّرة: (تتمرَّد الأحزان، انطوى النور، وانهار صرح محبة..)، واختيار بُنى صرفية ذات أوزان ودلالات ثرية بالمعاني والإيقاعات الموسيقية (ذوي، خبا، سعى، رأى..)، واختيار القافية المطلقة الموصولة بالياء، وحرف الروي العين المكسورة، إذ توحي بانكسار الشاعر وتوجُّعه على فراق صديقه، فضلًا عن التناص في قوله:

هجـــر الزِّحـــامَ وعـــاش مـــلءَ ضـــميرهِ ... حُـــرًّا، كعَـــرف الغابـــةِ المتضـــوِّعِ

وهو تناص لقول أبي تمام:

لـــولا اشـــتعالُ النـــار فيمـــا جـــاورت ... مـــا كـــان يُعـــرفُ طيـــبُ عـــرفِ العـــودِ [32]

ويقول المقالح في قصيدة (إيقاعات حزينة في زمن الحداد) إلى روح فقيد الوطن المناضل يحيى محمد المتوكل[33]:

---

[28] - الأعمال الشعرية الكاملة، م3، ص469.
[29] - شرح ديوان أبي تمام، الجزء2، الخطيب التبريزي، قدم له ووضع حواشيه راجي الأسمر، دار الكتاب العربي، ط2، 1994م، ص188.
[30] - عبد الرحمن محمد قاضي، ولد في الحيمة لواء صنعاء عام 1932م، وتلقى تعليمه فيها، ونبغ في الشعر حتى صار من الشعراء البارزين في العصر الحديث، له دواوين شعرية متعددة، منها: انتصار ثورة 1948م، بقايا قلب، صدر1970م، معاً إلى العليا، صدر 1971م، توفي عام 1997م. ينظر: الشعر اليمني المعاصر بين الأصالة والتجديد، ص466. والأبعاد الموضوعية والفنية لحركة الشعر المعاصر في اليمن، ص318.
[31] - الأعمال الشعرية الكاملة، م3، ص477.
[32] - شرح ديوان أبي تمام، الجزء1، ص213.
[33] - يحيى محمد المتوكل (1943-2003م)، سياسي ومناضل ومثقف بارز، ولد في مدينة شهارة، التي تقع في محافظة عمران، والتحق بكلية الطيران والمظلات، فتخرج منها عام 1961م، وحصل على درجة أركان حرب من الاتحاد السوفيتي عام 1965م، والتحق بتنظيم الضباط الأحرار، وتولى قيادة المنطقة العسكرية الشمالية الغربية من بداية الثورة عام 1962م، وعين وزيرًا للداخلية عام 1990م. ينظر: يحيى المتوكل- حضور في قلب التاريخ، صادق ناشر، المكتبة التاريخية اليمنية، مركز عبادي للدراسات والنشر، صنعاء، ط1، 2003م، ص21-35.

أدمـــــع العـــين أمْ نـــــارُ اشـــــتوائي ... تضـــجُّ لضـــىً، وتصـــرخُ فـــي دمـــائي؟
قضـــى (يحيـــى) فـــأورقَ مـــاءُ حزنـــي ... أســـىً، وانْحَـــلَّ فـــي يأســـي رجـــائي
فقـــــد حمـــــلَ الـــــبلادَ بمقلتيـــــهِ ... وكـــــانَ - إذا دعـــــتْ- نهـــــرَ العطـــــاءِ
وكـــــانَ إذا اشـــــتكى زمنـــــي مجيبًـــــا ... وإن هـــــي أظلمـــــت، يومًـــــا ســـــنائي
أأنســـــاه غـــــداة الشـــــعب نـــــادى ... مـــــن الكهـــــف المســـــوَّر بالعمـــــاءِ
رأى التلـــــف الـــــذي أردى بـــــلادًا ... وأودى بالجيـــــاع وبالضـــــماءِ
فمـــا أغفـــت لـــه عـــين، وثـــارت ... شـــبيبته، وكـــان هـــو الفـــدائي
وعـــاش علـــى مبادئـــه أمينًـــا ... يصـــادم كـــل أفّـــاكٍ مرائـــي [34].

بدأ الشاعر قصيدته بالدموع والبكاء على موت صديقه الودود يحيى المتوكل، الذي توفي بحادث مروري عام 2003م، وقد عاش حياة حافلة بالنضال والعطاء والتضحيات، وكان شخصية وطنية بارزة، لم يتغيَّر طول مسيرة حياته حتى مماته، لذلك كان فراقه صعبًا ومؤلمًا على أصدقائه وأهله وشعبه، ويؤكِّد المقالح هذا الحضور والحب الكبير، الذي ناله الفقيد يحيى المتوكل بقوله: "أأنساه غداة الشعب نادى...". استطاع الشاعر أن يصوغ القيم الموضوعية بأسلوب أدبي مليء بالدلالات الجمالية، وهذا ما نجده – دائمًا - عند المقالح في شعره، فهو شاعر كبير، وله مهارة وحذق في اختيار المعاني والقيم الفنية المعزِّزة لها، فمطلع القصيدة أو الاستهلال أحكمه بعنصر التصريع (اشتوائي، دمائي)، الذي أضفى على القصيدة دلالة تُجلي دائرة الحزن، وسيطرته على فضاء القصيدة، فضلًا عن الجرس الموسيقي، الذي أحدثه التصريع ودلالته، التي تكمن في الالتفات إلى التجربة من البداية (مطلع القصيدة)، والتصريع كما اعتبره قدامة بن جعفر علامة من علامات قوة الشاعرية والقدرة على الإبداع[35]. وقد تلى ذلك في البيت الثاني اختيار صورة شعرية تجديدية معبِّرة عن المعنى، بل وممتدة على امتداد البيت تحمل دلالة تعبيرية قوية، حين قال:" قضى يحيى فأورق ماء حزني أسىً وانحلَّ في يأسي رجائي..". ويقول المقالح في قصيدة (الوطن الثكلان) في رثاء فقيد اليمن القاضي العلَّامة (عبد الله عبد الوهاب الشماحي المجاهد [36]:

بكـــت عيـــوني جمـــرًا واشـــتكت شـــللًا ... وودعـــتْ فـــي ســـواد المحنـــة الأمـــلا
كـــان النهـــارُ نهـــارًا قبـــل مصـــرعه ... حتـــى إذا مـــا اســـتوى فـــي نعشـــهِ أفـــلا
يـــا أيهـــا الـــوطنُ الـــثكلانُ، معـــذرةً ... إذا أتـــى الشـــعر مأمزومًـــا ومختـــبلا
ترقـــرق الـــدمعُ فـــي عينيـــهِ مرثيـــةً ... وصـــارت الأرضُ فـــي أجفانـــه طلـــلا
دع الـــدموعَ إذا استوحشـــتَ، ســـاكبةً ... مـــا أخصـــبَ الـــدمعَ فـــي التـــاريخ إنْ همـــلا
بعـــضُ البكـــاء يضـــيء الـــنفسَ يصـــقلُها ... وبعضُـــه يصـــنعُ الثـــوراتِ والـــدُّولا
وربمـــا أيقـــضَ الـــدمعُ الجسُـــورُ دمًـــا ... أغفـــى علـــى العـــار عبـــدًا يطلـــبُ الأجـــلا [37]

لقد تأثَّر الشاعر عبد العزيز المقالح على موت صديقه عبد الله الشماحي، فبكاه بكاءً شديدًا في هذه القصيدة، التي جاءت محملة بحقل البكاء، نحو قوله:" بكت عيوني جمرًا، حتى إذا ما استوى في نعشه أفلا، ترقرق الدمع، بعض البكاء يضيء النفس يصقلها، من أين للعرب الأموات يا وطني مبكى، لعلَّ نار بكاء الشعب تعصره حزنا، توهج الحزن..). فحقل البكاء جاء طاغيًا في كل أبيات القصيدة؛ ليؤكد الشاعر أن الفقيد كان فراقه ورحيله خسارة ومحنة على الوطن، ولهذا سمَّى قصيدته (الوطن الثكلان)؛ ليدل من عتبة العنوان على المعنى، فالقصيدة تقرأ من عنوانها، فهي عزاء للوطن كله، تشي بعظم شخصية المرثي عبد الله عبد الوهاب الشماحي (المناضل، والسياسي والقاضي، والشاعر، والأديب، والمؤرِّخ).

ويقول المقالح في قصيدة (دموع على الدرب الأخضر) في جنازة فقيد الكلمة الشاعر لطفي جعفر أمان [38]:

وانتصر الشعرُ
امتطتْ خيولُهُ أجنحةَ الشمس
إلى السماءْ

[34]- الأعمال الشعرية الكاملة، م3، ص484.
[35] - ينظر: نقد الشعر، قدامة بن جعفر، تحقيق محمد عبدالمنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، (د- ت)، ص86.
[36] - عبدالله عبدالوهاب المجاهد الشماحي، ولد في مدينة شهارة، وتوفي في صنعاء، قاضي وأديب وشاعر ومؤرخ يمني معروف، مؤلف الكتاب المشهور (اليمن الحضارة الإنسان)، شارك في الحركة الوطنية منذ بدايتها، وكان له نشاط ولقاءات. تنقل بين مصر والحجاز، واقتِيد إلى سجن حجَّة بعد فشل ثورة 1948م، وبعد خروجه من السجن توقَّف نشاطه السياسي حتى بعد قيام ثورة سبتمبر 1962م. ينظر: الشعر اليمني المعاصر بين الأصالة والتجديد، ص470.
[37] - الأعمال الشعرية الكاملة، م3، ص472.
[38]- لطفي جعفر أمان، ولد في مايو 1928م في عدن، وتلقَّى تعليمه الابتدائي والإعدادي فيها، ثم سافر إلى السودان ودرس فيها مرحلة الثانوية والجامعة لمدة سبع سنوات، تأثر بشعراء السودان، ونال شهادة الليسانس في الأدب من جامعة الخرطوم 1949م، ثم عاد إلى عدن وعمل مدرسًا، ثم سافر إلى أوغندا وعمل فيها مدرسًا أيضًا، ثم سافر إلى بريطانيا ونال دبلوم التربية العالي من جامعة لندن، لطفي شاعر رومانسي وناقد وعازف ورسام وخطَّاط، فهو من أسرة عرفت بالثقافة والفن والأدب، له خمسة دواوين شعرية مطبوعة، وهي: (بقايا نغم، الدرب الأخضر، كانت لنا أيام، ليل إلى متى، إليكم يا إخوتي)، وله قصائد كتبها بالعامية. توفي بالقاهرة في 1971/12/16م. ينظر: لطفي أمان دراسة وتاريخ، علوي عبد الله طاهر، مؤسسة 14 أكتوبر للطباعة والنشر، عدن، 1981م، ص37.

من غير أوزانٍ ولا بحورْ
تسلّقتْ أنغامهُ وجهَ النجوم،
اخترقت حواجز الفضاءِ
حطمت حوائط الظلماءْ،
واستسلمتْ في دعةٍ للنورْ.
***
يا شاعرًا فوق الدروب الخُضْرِ
أشعلَ الشُموعْ
أهرقَ روحَهُ العطوفْ
وقلبهُ الشغُوفْ
أغنيةٌ للحبِّ.. للجموعْ،
جئناك في بحرٍ من الأحزانِ
في موجٍ من الدموعْ
ونحن لا نبكيكَ
لكنّا إليك نبكي قسوة الظروفْ
ومحنة الحروف.. [39]

يظهر المقالح في هذه القصيدة حزنه العميق برحيل زميله الشاعر الرومانسي الكبير، الذي توفي في سن مبكِّر، غير أنَّه قد أحدث تطورًا ملموسًا وتجديدًا في القصيدة في اليمن كما يوحي المقالح في مرثيته، وسبق أن قال عنه في كتابه (من البيت إلى القصيدة):"ولم يكن لطفي أمان في محاولاته الأولى متقدِّمًا على شعراء آخرين، أمثال لقمان والشامي والحضراني، في اختيار المفردات الموحية، وفي اختيار أسلوب التناول الرومانسي، ولكنَّه كان متقدِّمًا عليهم في شيء آخر، وكانت قصائده أو بعضها تختلف عن قصائد هؤلاء جميعًا، بما يمكن أن نسميه بالإرهاص المستشرف أو المبشر بالجديد الشعري، وكانت بعض هذه القصائد تسعى - ربما بصورة عفوية- خلف تطور الشكل الفني للقصيدة"[40].

حاول الشاعر في هذه القصيدة المرثية، أن يذكر براعة الشاعر لطفي أمان في التجديد الذي أحدثه في القصيدة في شعر اليمن الحديث، فيشير المقالح في المقطع الأول إلى ديوان لطفي الأول (بقايا نغم) بقوله:"وانتصر الشعرُ.. تسلّقتْ أنغامهُ وجهَ النجوم.."، إلى آخر المقطع، كذلك أشار في المقطع الثاني إلى ديوانه الثاني (الدرب الأخضر)؛ إذ قال: "يا شاعرًا فوق الدروب الخُضْرِ.."، الذي يمثل تحوُّلًا كبيرًا في الرؤية في شعر في اليمن الحديث؛ إذ يقول المقالح:"إذن نحن على أبواب رؤية جديدة، إنَّه الشاعر وقد اكتشف نفسه، لم يعد وهمًا، ها هو ذا قد صار حقيقة"[41]، فيشير المقالح أنَّ هذا الديون (الدرب الأخضر)، قد انماز بالنزعة الرومانسية الإنسانية، التي لم نجدها في ديوانه الأول، الذي انماز بالنزعة الرومانسية الفردية.

ويقول المقالح في قصيدة (حضور الغائب): في الذكرى الثالثة للراحل المقيم شاعر اليمن الكبير عبدالله البردوني[42]

1
يخرج كل ليلة من قبره
يشاهد النجوم في سمائه
منثورة على أديم الليل
(لم يكن رآها قبل)
إنه يجلس قربها
وفي براءةٍ يلمسُها
يداعب الأفقَ
ويرتوي من ضوئهِ

39 - الأعمال الشعرية الكاملة، م3، ص189-191.
40 - من البيت إلى القصيدة (دراسة في شعر اليمن الجديد)، عبد العزيز المقالح، دار الآداب، بيروت، ط1، 1983م، ص41.
41 - الشعر بين الرؤيا والتشكيل، عبد العزيز المقالح، دار العودة، بيروت، ط1، 1981م، ص222-223.
42 - عبد الله صالح عبدالله البردوني، ولد في مدينة ذمار 1929م، وأصيب بالجدري وهو في الخامسة من عمره، وعلى أثره فقد بصره، أكمل تعلُّم القرآن الكريم بالقراءات السبع، وقال الشعر وهو في سن الثالثة عشر من عمره، وقرأ دواوين الشعر العربي القديم، وكان متأثِّرًا بأبي تمام. انتقل في الأربعينيات إلى صنعاء، والتحق بالدراسة في الجامع الكبير، ثم درس في دار العلوم وحصل على إجازة منها في العلوم الشرعية والتفوُّق اللغوي. شغل العديد من المناصب الحكومية منها رئيس لجنة النصوص في إذاعة صنعاء، ثم مديرًا للبرامج عام 1980م، له أثنا عشر ديوانًا شعريًّا مطبوعًا، وثمان دراسات أدبية، منها: (ديوان من أرض بلقيس، وفي طريق الفجر، ومدينة الغد والسفر إلى الأيام الخضر، ووجوه دخانية في مرايا الليل، ورواغ المصابيح..)، ومن الدراسات: (رحلة في الشعر اليمني قديمه وحديثه، وقضايا يمنية، فنون الأدب الشعبي في اليمن، من أول قصيدة إلى آخر طلقة دراسة في شعر الزبيري وحياته..). حصل على الكثير من الجوائز، منها: جائزة أبي تمام بالموصل عام1971م، وجائزة شوقي بالقاهرة 1981م، وجائزة الأمم المتحدة اليونسكو، التي أصدرت عُمْلَة فضية عليها صورته في عام 1982م، وجائزة مهرجان جرش الرابع بالأردن1984 م، وجائزة سلطان العويس بالإمارات 1993م. كُتِبت عنه العديد من الدراسات الأدبية والنقدية والأطروحات العلمية، ويلقَّبه عبد العزيز المقالح بشاعر اليمن الكبير، توفي في أغسطس 1999م. ينظر: البردوني في أربعينيته، مجموعة من الكتاب والأدباء، إخراج عبدالله اليوسفي، التصحيح اللغوي هزاع مقبل، اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين، صنعاء، 1999م، ص10-14.

يقرأُ من أشعاره ملاحمًا
تندى بها البيوتُ والأشجارْ.
2
على رصيف الذكريات
يبكي مرةً يضحك مرةً،
يعثر في جموحِهِ
في عطرِهِ،
يبحث عن غزالة الأيامِ
عن بقايا الجمر في الخطى،
حين يرى الشرطي واقفًا
يسخر من وقفتهِ
يحزن إذْ يرى الناس تلوذ منهُ بالجدارْ.
3
سهوت أن أقولَ:
كان الموت قد أعاد عينيهِ
وشقَّ فيهما نهرًا من الحزنِ
وقارةً من الضياءْ
فأبصرَ الشوارعَ الشاحبةَ الجدرانِ
عانق الأزقةَ العمياءْ [43].

يرسم المقالح في هذه القصيدة لوحة متكاملة عبر ثلاثة مواقف، يستذكر فيها ملامح شخصية صديقه الودود عبدالله البردوني، فقد جاء الموقف الأول مرقَّمًا بالرقم (1)، مبشِّرًا له بحياة أجمل، يرى فيها ما فقده في حياته الأولى، وأول ما يرى النجوم ويلمسها، ويداعب الأفق ويرتوي من ضوئه ويقرأ أشعاره لتندى بها البيوت والأشجار، وفي الموقف (2) يستذكر الذكريات، التي مرَّت به في حياته، فتارةً يبكي وتارةً يضحك، غير أنَّ صورة الظلم، التي ألمت بالشعوب كانت مسيطرة عليه، وقد رمز لها بالشرطي، الذي يفرُّ الناس منه، وهي صورة أثارت فيه البكاء والشفقة حتى أضحكته من هولها، تماشيًا مع المثل العربي الشهير: "من شر البلية ما يضحك"، وجاء الموقف (3) مرتبطًا بالموقف الثاني، غير أنَّه كان في عالم آخر، عالم الموت الذي كان راحة له، فقد ارتدَّ إليه بصره، ورأى نهرًا من الحزن، فأبصر الشوارع الشاحبة الجدران، وعانق الأزقة العمياء، التي وصفها من قبل، ولم يشاهدها.

وبذلك استطاع المقالح أن يثير بمرثيته قضايا عبَّر عنها الشاعر البردوني في حياته، فالبردوني مازال حاضرًا في وطنه بقصائده الخالدة، كذلك العنوان فيه التفات وانزياح، فالقصيدة تقرأ من عتبة العنوان (حضور الغائب).

لقد عبر الشاعر في هذه المرثيات عن مشاعره الحزينة بصورة مشابهة لحالة الرحيل والفراق لأعزِّ أصدقائه، الذين معظمهم من الشعراء، عاش معهم أجمل الحياة والذكريات، فبكاهم بكاءً شديدًا، ذكر أيامهم وإخلاصهم ومواقفهم الثابتة، التي لم تتغير حتى مماتهم.

الخاتمة: يُعدُّ الرثاء من أرق أنواع التعبير وأصدقها؛ إذ أصبح موضوعًا مستقلًا، حظي بقصائد مستقلة، وحظي بدراسات أدبية ونقدية عديدة، درسته موضوعًا منفصلا عن موضوعات الشعر الأخرى.

والرثاء في شعر اليمن الحديث من الظواهر الأكثر حضورًا، ومن الموضوعات التي تستحق الدراسة والتحليل، فقد خصَّه معظم الشعراء في اليمن بقصائد خالصة ومعبِّرة ومؤثِّرة، تشي بأصالة التجربة وعمقها، وتجسد خصائصها التعبيرية والوجدانية والجمالية، وهذا الموضوع- أيضًا - لا نستطيع أن نحصيه أو نحيط به في هذه الدراسة لكثرته وسعته وانتشاه في شعر اليمن الحديث، لهذا اخترنا جزءًا منه أو نوعًا، وهو (رثاء الأعلام)، ودرسناه عند الشاعر (عبد العزيز المقالح أنموذجًا)، للتعبير عن هذا النوع أو الموضوع؛ لأنَّه أكثر الشعراء في اليمن حضورًا وتناولًا للموضوع.

تجلَّى الموضوع (رثاء الأعلام) عند الشاعر عبد العزيز المقالح في مشهدين لافتين:

أولًا- رثاء الشهداء: جسَّد فيه الشاعر عبد العزيز المقالح أروع المشاهد، وأنبل المواقف، والبطولات لهؤلاء الشهداء الأبطال (محمد محمود الزبيري، وزيد الموشكي، ومحي الدين العنسي، وعلي عبد المغني، وعبد الله محمد اللقية، وحسين صالح الحريزع..) الذين ناضلوا وقاتلوا، وسُجِنوا، وشُرِدوا، وقُتِلوا في ساحات النضال المختلفة، في قصائد وطنية خالدة، وفاءً لتضحياتهم في سبيل نيل شعبهم كرامته، وحريته من الإمامة الكهنوتية الظالمة.

ثانيًا- رثاء غير الشهداء- الأصدقاء: استطاع الشاعر في رثاء الأصدقاء التعبير عن مشاعره الحزينة بصور متشابهة في كل المراثي؛ إذ استرسل في التعبير ووصف الأحباب والأصدقاء، وحالة الفراق والرحيل لأعز أصدقائه، الذين معظمهم من الشعراء: (يحيى علي البشاري، وعبد الرحمن قاضي، ويحيى محمد المتوكل، وعبد الله عبد الوهاب الشماحي، ولطفي جعفر أمان، وعبد الله البردوني..)، فبكاهم بكاءً شديدًا، ذكر أيامهم، وذكرياتهم، ومواقفهم الثابتة، التي لم تتغير حتى مماتهم.

وبذلك استطاع الشاعر عبد العزيز المقالح التعبير عن معظم صور رثاء الأعلام، بأسلوب منفرد، وهذا ما لا يتأتَّى عند غير من الشعراء في شعر اليمن الحديث.

مصادر البحث ومراجعه:

[43] - الأعمال الشعرية الكاملة، م3، ص474-475.

1- الأبعاد الموضوعية والفنية لحركة الشعر المعاصر في اليمن، عبد العزيز المقالح، دار العودة، بيروت، ط3، 1984م.
2- الأعمال الشعرية الكاملة، عبد العزيز المقالح، وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، م3،1،2، 2004م.
3- البردوني في أربعينيته، مجموعة من الكتاب والأدباء، إخراج عبد الله اليوسفي، التصحيح اللغوي هزاع مقبل، اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين، صنعاء، 1999م.
4- تحاليل أسلوبية، محمد الهادي الطرابلسي، دار الجنوب للنشر، تونس، 1992م.
5- التمثيل الصوتي للمعاني، دراسة نظرية وتطبيقية في الشعر الجاهلي، حسني عبد الجليل يوسف، دار الثقافة للنشر، القاهرة، ط1، 1998م.
6- ثورة اليمن الدستورية، عبد الله السلال وآخرون، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، دار الآداب، بيروت، ط1، 1985م.
7- حافظ وشوقي: طه حسين، مكتبة الخفاجي، القاهرة، د. ت.
8- الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام، حسين جمعة، دار معد للنشر، دمشق، ط1، 1991م.
9- رحلة في الشعر اليمني قديمه وحديثه، عبد الله البردوني، بيروت، 1978م.
10- شرح ديوان أبي تمام: الخطيب التبريزي، قدم له ووضع حواشيه راجي الأسمر، دار الكتاب العربي، ج1،2، ط2، 1994م.
11- شعراء اليمن المعاصرون، هلال ناجي، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت، ط2، 2009م.
12- الشعر بين الرؤيا والتشكيل، عبد العزيز المقالح، دار العودة، بيروت، ط1، 1981م.
13- الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، يحيى الجبوري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط5، 1986م.
14- الشعر العربي في رثاء الدول والأمصار حتى نهاية سقوط الأندلس؛ شاهر عوض الكفاوين، أطروحة دكتوراه، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1984م.
15- شعر عمرو بن معدي كرب الزُّبيدي، جمعه ونسقه مطاع الطرابيشي، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ط2، 1985م.
16- الشعر اليمني المعاصر بين الأصالة والتجديد، أحمد قاسم علي المخلافي، مكتبة الجيل الجديد، صنعاء، (ب. ت).
17- ضفاف للغواية واليقين، قراءة في المنجز الإبداعي والنقدي اليمني الحديث، مكتبة خالد بن الوليد، دار الكتب اليمنية، صنعاء، ط1، 2009م.
18- طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلَّام الجمحي، تحقيق، محمود محمد شاكر، دار المدني للنشر، القاهرة، م1، 1974م.
19- قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة، دار العلم للملايين، بيروت، ط7، 1983م.
20- لطفي أمان دراسة وتاريخ، علوي عبد الله طاهر، مؤسسة 14 أكتوبر للطباعة والنشر، عدن، 1981م.
21- من البيت إلى القصيدة (دراسة في شعر اليمن الجديد)، عبد العزيز المقالح، دار الآداب، بيروت، ط1، 1983م.
22- نظرية الأدب: رينيه ويليك وأوستن وارين، تحقيق: محيي الدين صبحي، مراجعة، حسام الخطيب، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، لبنان (ب. ت).
23- نقد الشعر، قدامة بن جعفر، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، (د- ت).
24- وفيات عدن، سالم عبدالرب السلفي، دار الوفاق، الجمهورية اليمنية، عدن، ج1، ط1، 2014م.
25- يحيى المتوكل- حضور في قلب التاريخ، صادق ناشر، المكتبة التاريخية اليمنية، مركز عبادي للدراسات والنشر، صنعاء، ط1، 2003م.
26- اليمن الجمهوري، عبد الله البردوني، دار الأندلس، لبنان، ط5، 1997م.
27- يوميات يمانية في الأدب والفن، عبد العزيز المقالح، دار العودة، بيروت، (ب- ت).

Elegy of Prominent Figures in the Poetry of Abdul Aziz Al-Maqalh

Saleh Aqeel Salem Abdrabou
Associate Professor of Modern Literature
Faculty of Education - Zinginar, University of Abyan

Abstract: This study explores the theme of elegy for prominent figures in the poetry of Abdul Aziz al-Maqaleh through the analysis of two distinct scenes or thematic directions, with an emphasis on artistic and stylistic interpretation. In the first scene (the elegy of martyrs), Al-Maqaleh portrays the noblest sacrifices, heroic stances, and acts of valor and in the second scene (the elegy of friends and relatives) captures heartfelt memories, the pain of separation, and the sorrowful impact of losing close companions and loved ones.

Keywords: Elegy of prominent figures, thematic and artistic analysis, Abdulaziz Al-Maqaleh.